ثورة المعلومات فى الشرق الأوسط وشمال افريقيا(*)

عرض

محمود عبد الستار خليفة

باحث بالماجستير – جامعة القاهرة

moud@cybrarians.info

نتناول في هذا العرض أحد الكتب المهمة ، وهو يتناول موضوع تكنولوجيا المعلومات في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وذلك من حيث الجوانب الاقتصادية من حيث استثمارات الدول في مجال تكنولوجيا المعلومات ، وكذلك من الجوانب الاجتماعية ، وأيضاً من حيث الجوانب السياسية وهي ما يركز عليه الكتاب ، ويخرج الكتاب بنتيجة مهمة للغاية وهي أنه لا توجد دلائل ومؤشرات على حدوث ثورة معلومات في أغلب دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا .

فكرة تأليف الكتاب :

قام بتأليف الكتاب اثنان من الكتاب المرموقين في الولايات المتحدة والمعنيين بشئون الشرق الأوسط، وهما جراي بوركهارت وسوزان أولدر ويتمتعا بخبرة طويلة في دراسات الشرق الأوسط ، وقد تم تأليف هذا الكتاب بموجب عقد خاص مع مؤسسة رائد الأمريكية RAND ، ومن المعروف أن مؤسسة رائد هي إحدى المؤسسات الغير هادفة للربح ، وهى واحدة من أهم وأكبر مراكز البحوث السياسية والاستراتيجية التي ترجع إليها المؤسسة السياسية الحاكمة فى الولايات المتحدة ، لإعداد بحوث وتقارير ، كثيراً ما كان لها تأثيرها على صناعة القرار السياسي ، وقد ازداد التعاون بينها وبين وزارة الدفاع في فترة الرئيس جورج بوش حالياً ، خاصة فيما يتعلق بأوضاع ومواقف سياسية واستراتيجية في الدول العربية وفي الشرق الأوسط ، وقد تم إعداد هذا الكتاب ، بتكليف من مكتب وزير الدفاع الأمريكي .

وهذا الكتاب لا يقدم معلومات نظرية حول تكنولوجيا المعلومات في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ، ولا يصف الوضع الراهن لتكنولوجيا المعلومات في المنطقة ، ولكنه يعتمد على النتائج التي توصلت إليها عديد من البحوث والدراسات

(*) Burkhart, Grey E. and Older, Susan. The Information Revolution in Middle East and North Africa .- California : RAND, 2003.

والأوراق البحثية التي قام بإجرائها المعهد الوطني للدفاع التابع لمؤسسة راند ، وكذلك يعتمد بدرجة كبيرة على مناقشات في مؤتمرات دولية عديدة وتقارير ، تتناول المسار المتوقع لثورة المعلومات في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا على مدى السنوات الخمس والعشرين القادمة .

تتوفر نسخة مجانية من الكتاب في موقع مؤسسة راند RAND ويمكن تحميله مجاناً من العنوان التالي :

http://www.rand.org/publications/MR/MR1653/MR1653.pdf

مقدمة :

يبدأ الكتاب بمقدمة تاريخية حول المنطقة ، حيث يقول أن منطقة الشرق الأوسط كانت في زمن مضي موطناً لأكثر المجتمعات فى العالم تقدماً، وكانت شعوبها قد برعت في الرياضيات والفلك ، والعلوم ، والطب، وذاعت شهرتهم في الشعر والفنون، وقد تزامن هذا الصعود ، مع اتساع الامبراطورية الإسلامية ، والتي يطلق على ما تبقى منها إجمالياً اسم الشرق الأوسط وشمال أفريقيا . ويذكر الكتاب الأهمية والحضارة التاريخية للمنطقة، وتقسم هذه الدول حسب موقعها الجغرافي إلى دول الخليج ، دول المغرب ، دول المشرق وهكذا ... ، ويقول الكتاب ان الحكومات في هذه الدول لا تعطي اهتمامها الأول بتكنولوجيا المعلومات بل يتوجه نحو التجارة والنواحي الاقتصادية ، وبصفة عامة يعد هذا الفصل تقديماً للفصول القادمة من الكتاب .

فرص اللحاق بالثورة التكنولوجية فى المنطقة:

ثم يتحدث المؤلفان عن الفرصة المتاحة أمام دول المنطقة للحاق بثورة المعلومات ، والتي يمكن أن تكون الفرصة ممكنة ، ويمكن أيضاً ربما تكون الفرصة ضائعة ، ويقول أن هذه الدول لن تكون قادرة على أن تحبس جني ثمر ثورة المعلومات ، ويشير إلى حالة العراق بقوله أن العراق الذي كان نظامه حالة فريدة في السيطرة الكاملة على المعلومات ، والذي حرم من والإنترنت والدش ووسائل الإطلاع على ما يجرى في العالم ، كانت حكومته قد أخفت عن الشعب العراقي أن الجيش العراقي كان قد سحق تماماً على يد قوات التحالف عام 1991 ، وانها حاولت منع دخول أي معلومات إلى العراقيين عن طريق مختلف أدوات الرقابة . هذه المعلومات في الكتاب الذي كان قد تم إعداده قبل قليل من بدء الحرب على العراق .

ويضيف المؤلفان : لا يظهر ما يشير إلى ثورة معلومات وشيكة في معظم دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا كانتشار وتشغيل المعلومات القائمة على علم وخبرة وتحليل ، وكذلك وسائل الاتصال التكنولوجية يعتمد على عناصر اقتصادية ، عناصر ثقافية تتعلق بأنظمة الحكم . مثل حيوية النشاط الاقتصادي ، وانفتاح المشاركة السياسية ، والاحتمال قائم في أن تفقد معظم دول المنطقة فرصة اللحاق بثورة المعلومات ، بينما تمر بها بعض الدول مروراً ، وهذا بدوره سيؤدي إلى زيادة فجوة التنمية بين دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ، وبين دول منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي .

البنيـة التحتيـة والتكنولوجـيا فـى الشـرق الأوسط :

يناقش الكتاب البنية التحتية التي تحتاجا ثورة المعلومات والاتصالات وأوضاعها في دول المنطقة ، وبداية يقول الكتاب أن دول المنطقة شهدت تحسن كبير في مجال الاتصالات خلال العشر سنوات الماضية إلا أنها لا تزال أقل من عدد كبير جداً من دول العالم من حيث امتلاك خطوط التليفون وأجهزة حاسبات والاتصال بالإنترنت ، ويعرض لاحصائية صادرة عن الاتحاد الدولي للاتصالات سنة 2001 جاء ملخصها أنه من حيث امتلاك خطوط التليفون تأتي في المقدمة البحرين ثم قطر ثم الكويت ، ومن حث امتلاك أجهزة الحاسب الآلي قطر ثم الإمارات ثم البحرين ، ومن حيث مستخدمين الإنترنت فتأتي الإمارات أولاً ثم الكويت والبحرين ، ويخرج هذا الفصل بعدة حقائق نوجزها فيما يلي :

1 – دولة اليمن تعد أفقر دول المنطقة امتلاكاً للبنية التحتية .

2 – إيران هى أول دول المنطقة اتصالاً بالإنترنت وتليها الإمارات .

3 – ثورة الاتصالات اللاسلكية لم تظهر بقوة في المنطقة باستثناء مصر والأردن .

4 – التليفون المحمول يشهد نمو في الاستخدام بالمنطقة حيث يستخدمه 68 % من الاماراتين، و 20 % في لبنان ، و 12 % في السعودية ، و 5.7 % في مصر وأشار إلى النمو السريع لاستخدامه في مصر .

السيطرة على المعلومات من قبل الحكومات :

ويتناول الكتاب للحديث عن دور الحكومات في التحكم في المعلومات مما سيؤدي إلى تأخر ثورة المعلومات عن المنطقة لسنوات بعيدة ، ويشير إلي أن التحكم في تدفق المعلومات مسألة محورية في الحكم في السكان ، ومحورية في مزاولة النشاط التجاري ، وبذلك فإن التكنولوجيا التي تعمل على انتشار وتوسيع نشر المعلومات يمكن أن تكون مضادة لاحتياجات الحكومة ، بحيث أن بعض الحكومات لجأت إلى التحكم في تشغيل التكنولوجيا بما يلائم أهدافها الخاصة ، وتحكمت في ظهور وسائل التكنولوجيا الحديثة ابتداء من التليفون ، والراديو ، والتليفزيون ، وفيما بعد ذلك الإنترنت .

وكان الراديو والتليفزيون منذ سنوات يستخدمان كأدوات دعاية وتوجيه للمجتمع ، ولكن بعد أن أصبحت هذه الأدوات أكثر تعقيداً من سابقاتها ، فقد أصبح من الصعب على الحكمات قهر تأثيرها بشكل فعال . وان كان ذلك لم يمنعها من المحاولة وصار من غير المحتمل بالنسبة لأي دولة في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ، ان تتمتع تماماً باستثناء دولة أو دولتين ، بثورة المعلومات خلال السنوات العشر القادمة .

ان الحكومات في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا حاولت ممارسة سيطرة مركزية قوية على التجارة والمال والسياسة ، وكثير منها سعت لمد رقابتها على المجال الاجتماعي ، والحياة الشخصية لأفراد الشعب ، والتي تفعل ذلك لم تصل إلي السلطة نتيجة انتخابات حرة ونزيهة ، وتحتاج إلى

رقابة مركزية للاحتفاظ بالسلطة في الوقت الذي تخمد فيه صوت المعارضة . وعندما يصل الأمر بالوضع الاقتصادي إلى أشد حالات الضيق ، فإن ذلك يعزز من احتمالات العنف ، وعندما يصبح محتوى العقد الاجتماعي بين الحكومة والمحكومين فارغاً ، فإن تكنولوجيا المعلومات والاتصالات تصبح أسلحة قوية لكلا الجانبين ، ولكنها تكون محدودة الاستخدام من جانب الأصوات المعتدلة .

وقد عرفت حكومات المنطقة منذ وقت طويل قوة وسائل الإعلام فى الخداع ، وحاول كثير منها افراغ التكنولوجيا الحديثة من قدراتها خاصة الإنترنت ، لزيادة تحكمها وسيطرتها على السكان ، لكن وسائل الإعلام الجديدة وقنواتها الواسعة الانتشار يمكن أن تستخدم لنشر أفكارها ، وخلق صورة لها مقبولة ، وتقديم إجابات على تساؤلات مطروحة بدلاً من تركها معلقة مما يزيد من الريبة والشكوك ، وبهذا تستفيد من ثمار المعلومات ، بينما تتفادى فقدان وضع السيطرة .

ويؤكد الكتاب على أن ثورة المعلومات لا يمكن أن تتحقق في غياب مجتمع حر بالفعل ، وان كانت الحرية ليست الشرط الوحيد ، ومن ناحية أخرى فإن تطبيق وسائل التكنولوجيا والمعلومات والاتصالات في مجالات الحكومة والتجارة ، تجلب أخطاراً يشكلها النفاذ الكبير إلى المعلومات ، بما في ذلك زيادة الرغبة في بلوغ حريات شخصية وتجارية أكبر .

وقد ظهر مما أثبتته الدراسات إن ثورة معلومات حقيقية ، وأن أمامها فرصة ضئيلة في أن تحقق في مجتمعات غير ديمقراطية ، حيث تواجه الدكتاتورية ، وهي إما أن تخمد تكنولوجيا المعلومات والاتصالات ، وبالتالي تتخلف عن الثورة الصناعية الجديدة ، أو ان تسمح بهذه التكنولوجيا ، وتعرض سيطرتها الشمولية لأن تتفوض بشكل حتمي ، والحقيقة أن الأنظمة الدكتاتورية ليس أمامها خيار لأنها لن تستطيع على الإطلاق ان تمنع مد الزحف التكنولوجي . ان العلاقة بين الحكم والمحكومين أي العقد الاجتماعى – في دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ، هي موضع ضغط ، بما فيها قلة ضئيلة من الدول التي تمارس فيها الديمقراطية ، وان التحدي الرئيسي للعقد الاجتماعى ينشأ عن نقص التعددية الحقيقية ، ومن عدم حدوث تغييرات اقتصادية جوهرية ، في دول مجتمعاتها مغلقة ، وكذلك من أسباب اجتماعية أخرى ، مثل زيادة نسبة الشباب من السكان ، الذين يتزايد عددهم بالدرجة التي لا تقدر الاقتصاديات المعمول بها على توظيفهم ، وأيضاً من كون بعض الأنظمة تعتبر قمعية لشعبها .

مفهوم الأمن فى وتأثيره علي تكنولوجيا المعلومات :

يقول الكتاب في الفصل السادس تحت عنوان تحديات الأمن : ان مفهوم الأمن كما تمارسه كثير من حكومات الشرق الأوسط وشمال أفريقيا له مدلول عام وليس محدداً كما هو الحال في الغرب، وان مفهوم المجتمع المدني يتصور حريات أقل عما هو مأخوذ به في الغرب . وهذه المفاهيم في عالم متغير ، مثلما هو الحال في إطار العولمة ، تجلب إلى المنطقة صوراً وأفكاراً عن حريات شخصية أوسع ، ومسئوليات، تظهر لهم خاصة مع انتشار التليفزيون،

فالتليفزيون يزيد حواجز الأمية ، ويخاطب قطاعات من المجتمع مثل المرأة ، والفقراء جداً ، الذين بعدوا عن الوسائل التقليدية للعلم والتعليم ، كما أن العولمة تزود المهاجرين إلى دول أخرى في العالم بأن يكون لهم تأثير أكبر عن طريق مشاركتهم في نشاطات في بلادهم الأصلية ، بشكل لم يتوافر لهم في الماضي ، فكرياً ومالياً .

ولقد كان للأمن القومي مفهوم يقوم علي السيطرة أو ردع أي شيء يمثل تهديداً للمؤسسات الحاكمة ، ولمصالحها ، ولا تشمل هه المصالح كبار المسئولين في الحكومة فقط لكنها تشمل أيضاً كبار رجال الأعمال ، ومؤسسات أخرى ، وعلى هذا فإن التوصيف الأوسع لمفهوم الأمن ، هو على قدر اتساعه ليشمل التهديدات التي ينبغي اتخاذ موقف الدفاع عنها . ولقد وعت الحكومات كون التدفق غير الخاضع للقيود للمعلومات عبر الحدود يمثل تهديداً محتملاً للأمن ، لكن يظل الجمود الاقتصادي ونقص التعددية مصادر تهديد لأنها تغذي التطرف .

ويتحدث الكتاب عن ما يسمى بالمنطقة الرمادية ، حيث تواصل دول زيادة استخدام تكنولوجيا المعلومات لكن دون أن تبلغ بالفعل وضع الثورة التكنولوجية ، ان فجر عصر ثورة المعلومات لم يبزغ بعد في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ، لكن تغييرات مهمة سوف تحدث ، وسوف تتأثر بعض هذه التغييرات بانتشار تكنولوجيا المعلومات ، كما أن بعض التغييرات سوف تؤثر على مستقبل تنمية وتطور تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في المنطقة.

ان ثورة المعلومات ليست لعبة تأخذ منها ما تريد وتترك ما لا تريده ، فكل الدول والثقافات والمذاهب والشعوب يمكنها أن تجني ثمارها . لكن هناك جوهراً أساسياً لثورة المعلومات لا يمكن أن تثمر وتعم فائدتها بدونه وهو : حرية التعبير ، وتبادلية المنافع بين الأفراد ، وعالمية الوصول إلى المعلومات .

أما مسألة ما إذا كانت ثورة المعلومات سوف تثمر أم تفشل ، فهذا يعتمد على حد كبير على طبيعة أنظمة المستقبل ، ويضيف المؤلفان أن الولايات المتحدة قد خسرت قدراً كبيراً من مصداقيتها على مدى السنوات العشر الماضية ، بسبب تأييدها لأنظمة غير ديمقراطية من أجل مصالحها هناك ، بالإضافة إلى استمرار النزاع العربي – الإسرائيلي في استقطاب الكثيرين في المنطقة وراء تغذية المشاعر المعادية لأمريكا .

الخلاصة :

بعد هذا العرض الموجز للكتاب ، نجد أن هناك بعض النقاط تستحق التحليل والتعليق عليها ، وكذلك نلخص أهم ما توصل إليه الكتاب :

أولاً : ان الكتاب استخدم تشبيهاً دقيقاً في وصفه لثورة المعلومات ، بوصفها بالجني أو المارد الشهير في ألف ليلة وليلة ، الذي مازال حبيساً داخل الزجاجة أو القمقم ، لكن جدران الزجاجة تكسرت ، بفعل وسائل المعلومات التي بلغت موجاتها شواطئ الشعوب في بلادها البعيدة .

ثانياً : يستند الكتاب على البحوث والدراسات والاحصاءات في القول بأن الشواهد لا ترجح

وصول ثورة المعلومات بكل عافيتها وتأثيرها إلى دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا خلال السنوات العشر القادمة، وهو يعدد الأسباب التي تمنع ذلك وعلى رأسها مشكلة أنظمة الحكم .

ثالثاً : الكتاب يحدد أن تحقق ثورة المعلومات لا يمكن أن يتم إلا بتوافر شروط جوهرية ، هي الديمقراطية الفعلية وحرية التعبير .

رابعاً : الكتاب تحدث عن مفهوم الأمن في كثير من دول المنطقة وكيف أنه مفهوم ضيق للأمن ، يعجز عن صد العدوان الخارجي ، لأنه تمت صياغته من أجل أمن المؤسسات في الداخل أولاً . وان وسائل الاتصال والعولمة تنقل صوراً من الأفكار عن الحريات في الخارج .

obeikandl.com